

# البليوجرافيا، أو، علم الكتاب دراسة في أصول النظرية البليوجرافية وتطبيقاتها النظرية الخاصة : البليوجرافيا التاريخية البليوجرافيا التحليلية\*

إعداد

عبد الله حسين متولى

مدرس مساعد بقسم المكتبات والوثائق والمعلومات

كلية الآداب - جامعة القاهرة

لما له من تاريخ حافل بالأعمال الرائدة في المجال  
والمناصب المتعددة التي تقلدها مما يؤكد أن علم  
البليوجرافيا بكافة مشتملاته وعلاقاته سيكون في  
يد أمينة تأصله كمصطلح وتجمع شتات المعلومات  
المتناثرة التي كتبت عنه وتميز بين الغث منها  
والسمين. وتكمن صعوبة تناول موضوع  
البليوجرافيا هذا أنه يقع في منطقة هي محط نزاع  
فئات متعددة كعلماء اللغة، والمؤرخين، والمكتبيين،  
وعلماء المعلومات، وخبراء الحاسب الآلى... وكثير  
غيرهم، هذا فضلاً عن تشتت وربما تناقض  
الكتابات حوله لذا فقد وصف الدكتور شعبان  
إقدامه على هذا العمل بمن أدخل يده في عش

في مقدمة عرضي للكتاب الأول الخاص  
بالنظرية العامة في البليوجرافيا أو علم الكتاب\*\*  
ذكرت أن من يجرؤ على تحمل تبعات وضع عمل  
يؤرخ لعلم البليوجرافيا ويتتبع مراحل نشأته وتطوره  
 وأنواعه المختلفة ويحصر العلوم التي خرجت من  
تحت عبائه والعلوم التي ما تزال حريصة على صلة  
الرحم التي تربطها به، من يجرؤ على كل ذلك  
إنما هو واحد من اثنين إما جاهل بحقيقة هذه  
المسؤولية الكبيرة وعظم حجمها أو عالم كل العلم  
بهذه الحقيقة ومدرك كل الإدراك لهذا الحجم ولا  
يختلف اثنان على أن أستاذنا الدكتور شعبان  
عبد العزيز خليفة يقيناً من الصنف الثاني من الرجال

\* شعبان عبدالعزيز خليفة. البليوجرافيا، أو، علم الكتاب: دراسة في أصول النظرية البليوجرافية وتطبيقاتها: النظرية الخاصة:

البليوجرافيا التاريخية. البليوجرافيا التحليلية. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٧. ٧١٩ ص؛ ٢٤ سم.

\*\* شعبان عبدالعزيز خليفة. البليوجرافيا، أو، علم المكتبات: دراسة في أصول النظرية البليوجرافية وتطبيقاتها: النظرية العامة/ عرض

عبدالله حسين متولى. مجلة المكتبات والمعلومات العربية. س ١٦، ع ٤ (أكتوبر ١٩٩٦) ص ص ١٢٤ - ١٣٩.

للزناير تفتح عليه طاقات تصب شآبيب من شواظ تتلظى لهباً ولكنى وجدت بعد استعراضى المركز لمحتوى الكتاب الأول أن أستاذنا كان نحلاً محنكاً يعرف مداخل ومخارج الخلية ويعرف أيضاً كيف يتقى لدغات النحل أو فى أسوأ الظروف يتحمل بعض لدغاته من أجل أن يجنى لمجتمعنا نحن المكتبيين عسل مصفى لذة للشاربين ألا وهو كتاب يضم الأسس العريضة والإطار العام لعلم البليوجرافيا.

وكانت أولى قطفتى العسل اللتين آل كاتبنا على نفسه تقديمهما لمجتمع المكتبات والمعلومات لكى ييراوا جميعاً من حمى اللبس وخلط المفاهيم حول موضوع البليوجرافيا هى النظرية العامة لعلم البليوجرافيا والتي تشير إلى أنه ذلك العلم الذى يقصر نفسه على دراسة ما أنتج من قوائم والتعريف بها وتيسير الإفادة منها، كما يدرس خطوات وقواعد إعدادها وإنتاجها سواء يدوياً أو آلياً أى أنه علم قوائم الإنتاج الفكرى. أما القطفة الثانية التى يضمها الكتاب الذى نحن بصدد الحديث عن أول جزئيه فتتناول النظرية الخاصة لهذا العلم والتي تشير إلى أن البليوجرافيا هى ذلك العلم الذى يدرس الكتاب من زواياه الثلاث: الرمز، والوسيط، والفكر أى علم الكتاب، وقد أفرزتها فرنسا فى القرن الثامن عشر وما بعده واعتنقها البريطانيون ووسعوها بعدهم.

وفى حين تتكون القطفة الأولى أو كتاب النظرية العامة من ست رشفات أو أقسام نجد القطفة الثانية تتكون من أربع رشفات أو أسفار على حد قول كاتبنا هى: البليوجرافيا التاريخية، والبليوجرافيا التحليلية أو المادية (الفيزيقية)، البليوجرافيا النقدية أو النصية، والرفاهية البليوجرافية.

ونحن الآن بصدد تقديم عرض للمجلد الأول من كتاب النظرية الخاصة والذى يضم الرشتين أو السفين الأول والثانى أما السفين الثالث والرابع فمن المنتظر أن يصدرا مع أوائل عام ١٩٩٨ فى مجلد ثان يضمهما معاً. ويختص السفر الأول: بالبليوجرافيا التاريخية التى تعنى أساساً بتاريخ الكتاب وتطوره فى الزمان والمكان على وجه الإطلاق وذلك لرسم الصورة العامة لهذا التطور شأنها فى ذلك شأن أية دراسة تاريخية فى مجال آخر وهى تتحرك فى ثلاثة محاور تتمثل فى:

- مواد وأدوات الكتابة عبر العصور

- الكتابة أو الرمز الذى سجل به الإنسان أفكاره عبر العصور.

- المعرفة الإنسانية وكيف تطورت عبر العصور

ويتضمن هذا السفر أو الرشفة أربع مذقات أو كراريس على حد تعبير د. شعبان شغلت فى مجموعها ٢٢٥ صفحة أى نسبة ٣١٪ تقريباً من المجلد ككل.

الكراس الأول: بعنوان مواد الكتابة وأدواتها عبر العصور وقدم فيه الكاتب استعراض مفصل لمراحل نشأة وتطور مواد الكتابة من بردى، رق، وألواح طينية، ومعادن، وألواح خشبية هذا بالإضافة إلى الصخور والحجارة ولحاء الشجر الجاف مع أفراد مساحة كبيرة بعض الشئ للحديث عن سيد المواد التى كتب عليها ألا وهو الورق حيث تم استعراض ظروف نشأته والمواد المختلفة والمتنوعة التى صنع منها وأنواعه المختلفة من حيث:

أ - طريقة التصنيع: يدوى، آلى،

ب - مدى التحمل

ج - مدى الجودة والصقل مثل: الفلجان الياباني، والهندي، والصيني، والأنتيك.

د - الحجم والوزن: التاج العادي، ضعف التاج، أربعة أضعاف التاج.

ثم انتقل بعد ذلك للحديث عن فئة المواد غير التقليدية - مع تسليمنا بنسبية هذا المصطلح ذلك أن ما نعتبره الآن غير تقليدي كان وقت ظهوره قمة التكنولوجيا وغير تقليدي - وفي مقدمتها: المصغرات الفيلمية حيث أوضح كنهها وطريقة التسجيل عليها وفئاتها المختلفة ومزايا وعيوب كل فئة. ثم قد مثبت تاريخي متميز لمراحل تطور هذه الفئة من أوعية المعلومات على مدى قرن كامل منذ ١٨٠٢ - ١٩٠٠ أعقبه باستعراض مركز لفئة المواد السمعية والبصرية أوضح فيه أيضاً طبيعتها الخاصة وكيفية التسجيل على كل نوع من أنواعها الثلاثة: المواد السمعية وركز فيها على الاسطوانات والأشرطة الصوتية، المواد البصرية وركز فيها على الأفلام غير المتحركة، المواد السمعية البصرية وركز فيها على الأفلام السينمائية وأفلام الفيديو ثم اختتم حديثه في هذا الجزء بالإشارة إلى نوعين حديثين من المواد هما ملفات البيانات الآلية، أقراص الليزر حيث ميز بين كل منهما من حيث طريقة تسجيل المعلومات، وإمكانيات البحث والاسترجاع، والمزايا والعيوب. ثم قدم استعراض مركز لأدوات الكتابة أو لأدوات تسجيل المعلومات وأنواعها ومراحل تطوير كل نوع مع تأكيده على حقيقة ارتباط كل أداة من هذه الأدوات بالوسيط أو المادة التي يكتب عليها.

## أما المذقة أو الكرّس الثاني:

وهو بعنوان الكتابة أو رمز التسجيل واستعرض فيه الدكتور شعبان مراحل نشأة وتطوير الكتابة والتي بدأت بالمرحلة الرمزية أو التذكيرية والتي كان فيها الإنسان يرسم خطوطاً أو رسومات معينة لتعينه على التذكير تلتهها المرحلة التصويرية وفيها كانت الكتابة عبارة عن مجموعة من الصور لأشياء تكون في مجملها موضوعاً وبالنظر إليها نعرف إلى ماذا تشير فالمرحلة الأيديولوجية وكان الإنسان فيها يرسم لوحة كاملة ليبر عن مجموعة من الأفكار أو المعاني ثم المرحلة الصوتية أو الأبجدية التي استطاع الإنسان فيها أن يعبر عن كل صوت يرمز أو علامة محددة وقد بدأ شكل الحرف بجزء من شيء مادي يبدأ اسمه بذلك الحرف ثم رويداً رويداً بعد الرمز مع التعديل والتحويل المعنوي عن شكل الشيء المادي وهكذا بدأت الأبجدية السينائية، واختتم هذا الكرّس باستعراض تطور الأبجديات المختلفة مع التركيز على الخط العربي.

## يليه الكرّاس الثالث:

ويحمل عنوان اختراع الطباعة وتطورها: وأشار فيه الكاتب إلى أن المحاولات الأولى للطباعة ظهرت في الصين واليابان والهند فيما عرف بطباعة الكتل الخشبية حيث كان يؤتى بكتلة من الخشب على مقاس الصفحة ويكتب عليها النص عن طريق الحفر البارز ثم تغطى الكتابة بالحبر وتضغط الأوراق على هذا النص المحبر لطبع النص على الأوراق تلاها اختراع الطباعة بالحروف المتحركة على يد الألماني يوحنا جوتنبرج. ثم عرج بعد ذلك لبيان تطور صناعة الطباعة في عدد من الدول مثل ألمانيا، وإيطاليا، وفرنسا، وهولندا، وأسبانيا، وإنجلترا،

والولايات المتحدة الأمريكية وأخيراً مصر والعالم العربى. ثم يختتم هذا الكراس بثبت تاريخى متميز بأهم وقائع الطباعة والورق بداية من اختراع الورق عام ١٠٥ م وحتى عام ١٥٠٣ وهى السنة التى مات فيها بيتر شوفر أحد أعلام الطباعة البارزين.

ثم يأتى آخر كراريس هذا السفر الأول وهو الكراس الرابع وهو بعنوان تطور المعرفة الإنسانية وأشار فيها الدكتور شعبان إلى أن الآراء قد اختلفت حول نشأة المعرفة البشرية ففى حين يرى البعض أن الفنون هى أول فروع المعرفة البشرية فى حين يرى البعض الآخر أن أول فروع المعرفة البشرية ظهوراً هو الفلسفة وعلم النفس بينما يرى بعض ثالث أن العلوم التطبيقية بدأت قبل غيرها من العلوم وبعيداً عن هذا الاختلاف فى الآراء حول أول العلوم ظهوراً يطالعنا أستاذنا الدكتور شعبان خليفة بجدول جامع إلى حد كبير يؤرخ لتطور الفكر الإنسانى منذ أقدم العصور حتى قرننا العشرين.

أما السفر الثانى فيتناول البليوجرافيا التحليلية وهى تعنى أساساً بدراسة كيفية بناء الكتاب خطوة خطوة وبدراسة الملامح المادية أو الكيان الفيزيقي له، ويتضمن هذا السفر تسع كراريس شغلت فى مجموعها ٤٧٦ صفحة أى نسبة ٦٦٪ من المجلد.

الكراس الأول: وهو بعنوان بناء الكتاب وملامحه المادية وقد تناول فيه الكاتب عدة موضوعات ترتبط بالبناء المادى للكتاب مثل: الأبناط بأشكالها وأحجامها المختلفة، وأسلوب الجمع اليدوى والجمع الآلى، والجمع السطرى، والجمع الحرفى والطباعة المجسمة والطباعة الكهربائية، وأنواع الطابعات من الطباعة اليدوية، والطباعة البلاطينية، والطباعة الاسطوانية، والطباعة الكاملة، والطباعة الدوارة. ثم انتقل بعد ذلك للحديث عن الملامح المادية من:

قوادم (وتتضمن ورق البطانة الأولى، وصفحة العنوان المجزوء، وصفحة العنوان، وصفحة الشكر، والمقدمة والتصدير، وقائمة المحتويات، وقائمة الإيضاحيات وقائمة التصويبات، وتصريح الطبع)، المتن (ويقصد به المعلومات التى أراد المؤلف أن يقدمها للقراء)، والخواتم (وتضم الحواشى والهوامش، والملاحق، وقائمة المصطلحات، وقائمة المصادر، والكشاف، وورقة البطانة الأخيرة) مدعماً كل ذلك بنماذج مصورة من المهاييات وأوائل المطبوعات.

ويليه الكراس الثانى أو المذقة الثانية ويتناول علامات الطابعين والتى تعنى تلك العلامات التى كان الطابعون يحرصون على وضعها كنوع من إثبات الذات وإثبات الملكية وتأكيداً على أنهم يفعلون شيئاً مختلفاً عما يفعله الناسخون، وقد أشار الدكتور شعبان خليفة فى هذا الكراس إلى أن أقدم علامة طباعية وصلتنا كانت الدرع المزدوج وقد ظهرت لأول مرة سنة ١٤٥٧ م على كتاب المزامير ثم تتابعت العلامات بعد ذلك وتنوعت ما بين أفرع وأغصان الأشجار، وصور الحيوانات والطيور والدوائر والأشكال الهندسية وكان منها ما هو بارز وما هو غائر ولم يفت أستاذنا أن يدعم وصفه لتلك العلامات بصور بلغ عددها سبع عشرة صورة.

أما الكراس الثالث فخصص لـ «صفحة العنوان» وساق فيه الكاتب تعريفاً لها ينطبق أساساً على أوائل المطبوعات وهو أنها (صفحة مستقلة تصدر الكتاب وتقدم عنوان الكتاب الذى يليها ولا تشتمل على أى جزء من نص الكتاب نفسه) ثم دعمه بتعريف حديث لها وهو الذى يضيف إلى ما سبق أن هذه الصفحة تضم أيضاً عناصر الوصف البليوجرافى الأخرى. كما أشار إلى أن هذه الصفحة لم يكن لها وجود بمعناها الحالى فى

عصر المخطوطات نتيجة ارتفاع ثمن المادة التي يكتب عليها وإنما كانت الممارسة المعتادة آنذاك هي كتابة عنوان العمل كجزء من مقدمة العمل مع تمييزه في بعض الأحيان بمداد ذي لون مختلف عن لون المداد المكتوب به النص، وقد سارت أوائل المطبوعات على نفس النهج أما بقية البيانات التي تحويها صفحة العنوان كما نعرفها حالياً من سم ومكان الطابع وتاريخ الطبع فقد كان يتم إرجاؤها حتى نهاية العمل فيما يعرف بحرد المتن Colophon ومع ذلك فإن أقدم شكل يقارب الشكل الحالي لصفحات العنوان كان في مخطوطات إيطالية أفردت فيها صفحة عنوان عامة للأنجيل الأربعة في الكتاب المقدس المخطوط المعروف باسم «كراس أوربوس» سنة ٨٠٠م. ومن أبرز الملاحظات التي سبقت في هذا الكراس عن صفحات عناوين في بداية ظهورها هي أن غالبية صفحات العنوان الأولى لم تكن تتضمن في غالبيتها إشارة إلى مكان بيع الكتب، ولقد استمر ذكر اسم بائع الكتب أو الوكيل المتعهد بالتوزيع حتى القرن التاسع عشر ومازال هذا الإجراء معمولاً به في بعض الكتب حتى اليوم في نهاية قرننا العشرين. أما بداية ظهور صفحة العنوان كما نعرفها اليوم فقد كان ذلك في الربع الثاني من القرن السادس عشر حيث ظهرت بتفاصيلها الكاملة مع خلوها من الزخارف وفي حين استقر على موقع صفحة العنوان في بداية الكتاب منذ ذلك التاريخ وحتى الآن تعدد وتباين إخراجها من فترة إلى فترة ومن مكان لآخر ومن طابع إلى طابع وهنا أيضاً دعم المؤلف حديثه عن صفحة العنوان بنماذج مصورة لصفحات عناوين من حقبة مختلفة بلغ عددها واحد وخمسين نموذجاً.

ثم يأتي الكراس الرابع داخل هذا السفر وقد تناول فيه الكاتب «الهوامش» مشيراً إلى أن الهوامش الداخلية هي أصغر الهوامش تليها الهوامش الخارجية وأخيراً أكبرها جميعاً الهامش السفلي وإجمالاً نجده يسوق المعايير التالية وهي: أن يمثل الهامش السفلي خمس ارتفاع الصفحة ويكون الهامش العلوي نصف ذلك ويكون الهامش الخارجي خمس الهامش السفلي ويكون الهامش الداخلي أقل قليلاً من نصف الهامش الخارجي.

بعد ذلك يأتي الكراس الخامس وهو بعنوان العلامات المائية ويقصد بها تلك العلامة التي تحملها كل ورقة من الأوراق المصنوعة يدوياً على القالب الذي صنعت فيه والتي يمكن رؤيتها بوضوح لو رفعنا الورقة في الضوء، ولقد بدأ ظهورها اعتباراً من القرن الثالث عشر الميلادي كعلامة تجارية أو كعلامة شخصية للمصانع التي تنتجها ومع ظهور الطباعة واتساع صناعة الورق انتشر بالتالي استخدام العلامات المائية هذه وتنوعت أشكالها تنوعاً كبيراً ما بين صور ودروع وحروف وأشكال هندسية ونباتية مع تفاوت الورق الذي يحملها أيضاً من حيث مدى الجودة ودعم أستاذنا الدكتور شعبان هذا الجزء بأكثر من مائتي نموذج مصور للعلامات المائية.

يليه الكراس السادس وهو بعنوان «حرد المتن في أوائل المطبوعات» وهو في الواقع عبارة عن دراسة مركزة عن حرد المتن في أوائل المطبوعات من حيث المقصود به وبداية ظهوره وأهميته والبيانات التي عادة ما يتضمنها مشيراً إلى أنه يعني من الناحية اللغوية «اللمسة النهائية» أو «لمسة التشطيب» في حين يعني اصطلاحاً (فقرة الختام في المخطوط أو الكتاب المطبوع) واستمر وجود حرد المتن في أوائل المطبوعات تأثراً بنهاية المخطوطات

حيث كانت له أهمية كبرى فى غياب صفحة العنوان نظراً لما يضمه من معلومات هامة لتحديد ذاتية الوعاء. ثم استعرض المؤلف شكل ومضمون وبناء حرد المتن بشكل مقارن بين المدن الأوروبية المختلفة التى تميزت مطبوعاتها بالحرص على إبراز هذا الجزء مثل البندقية، أكسفورد، ميلانو.. إلخ. وكما ألمح إلى أن حرد المتن هذه لم تكن تقتصر فقط على الطابعين وإنما كان منها ما يوضع من قبل الناشرين أو المؤلفين أو المحررين ولفت النظر إلى أن هذا الجزء الحيوى من الكتاب قد تعرض فى أحيان كثيرة إلى التعديلات والسرقات لتحقيق مآرب شتى واختتم هذه المذقة أو الكراس بنحو سبعة عشر نموذج مصور لحرد متن متنوعة.

بعد ذلك يأتى الكراس السابع تحت عنوان «إنتاج المهاديات» واستعرض فيه الكاتب إنتاج المهاديات أو أوائل المطبوعات من حيث أبناط الطباعة وكيفية صنع الأحرف الطباعية والخامات المستخدمة فيها من خشب ونحاس ورصاص، ومتوسط عدد النسخ التى تصدر من كل طبعة ومدى تأثير ذلك بحجم ونوع الآلات الموجودة فى كل مطبعة آنذاك كما أشار الدكتور شعبان فى هذا السياق إلى معايير الإنتاج الطباعى سواء من حيث عدد ساعات العمل أو كم الإنتاج أو جودة المنتج من الكتب ولم ينس أيضاً فى ختام هذا الكراس ذكر عدد من الجداول الكمية الإحصائية التى تحصر المهاديات العلمية موزعة حسب الدول المختلفة بل والمدن أيضاً.

أما الكراس الثامن فقد اختص بـ «الإيضاحيات» وأشار فيه الكاتب إلى أن قدم الإيضاحيات من صور ورسوم يهدف من ورائها توضيح النص يعود إلى قدم الكتاب نفسه وقد تدرجت من الرمزية إلى التعبيرية ولم تظهر الإيضاحيات التى يقصد بها

توضيح النص وشرحه إلا بعد قرن من ظهور الطباعة وأنها تلعب دوراً هاماً فى تحديد تاريخ إنتاج الكتاب: مخطوطاً كان أو مطبوعاً وكذلك تحديد مكان إنتاجه خاصة إذا لم يساعد على ذلك سواء صفحة العنوان أو حرد المتن، كما حصر الدكتور شعبان فى هذا الكراس أنواع الإيضاحيات من حيث طريقة إنتاجها فى ثلاثة أنواع هى: الإيضاحيات البارزة (المجسمة) والإيضاحيات الغائرة، والإيضاحيات المستوية.

ثم يأتى الكراس التاسع آخر مذقات أو كراسات هذا السفر أو الرشفة وتناول فيه المؤلف موضوع «تجليد الكتب» مستعرضاً مراحل تطوره المختلفة منذ العصور القديمة وحتى الوقت الحالى ويشير إلى أنه كان فى بدايته بهدف التجميل والزخرفة ثم شيئاً فشيئاً انصب الهدف منه على حفظ وحماية صفحات النص كما أشار إلى تنوع الخامات المستخدمة فى التجليد ما بين الخشب والجلد والفضة والورق المقوى سواء ضم أياً منها بالذهب أو لم يطعم، ثم عرج بعد ذلك على بيان أجزاء التجليد وحصرها فى الآتى: الكعب، والطوق، واللوح الأمامى (الجلدة الأمامية)، واللوح الخلفى (الجلدة الخلفية)، والرأس والذيل، والحافة الأمامية، وأوراق البطانة، واللسان أعقبه بيان الأنواع المختلفة من طرق التجليد والمراحل التى تمر بها كل طريقة.

وفى ختام هذا العرض المسهب لهذا العمل المتميز الذى ينم عن خبرة طويلة ومتعمقة فى مجال البليوجرافيا والمأم واع بدروبها وأزقتها، أرانى مدفوعاً لأن أكرر مطالبتي للدكتور شعبان خليفة بأن يسارع بإصدار خاتمة قطقات العسل هذه ألا وهى المجلد الثانى من النظرية الخاصة بالبليوجرافيا حتى يكتمل هذا الرحيق المختوم والذى يقيناً سيكون ختامه مسك بإذن الله تعالى.